

التماسك في بناء النص اللغوي: دراسة وصفية

د. فهد بن عبد الحميد مر عمر¹

د. أسماء بنت محمد عثمان المحمدي²

ملخص البحث

تتناول هذه الورقة بيان حقيقة مفهوم التماسك النصّي، بوصفه ظاهرة لسانية ذات أهمية بالغة في بناء أي نص، فتماسك النص بين بعضه يعد ظاهرة لغوية عرفت في نصوصها القديمة، نحو: الشعر والخطب الجاهلية، ثم استعملها القرآن الكريم، ووردت في الحديث الشريف، وكلام العرب شعراً ونثراً، وعلى هذا تهدف الورقة إلى تسليط الضوء على توظيف اللسانيات المعاصرة في دراسة النص، وما يكتسبه النص من تماسك واتساق فيما بينه من علاقات مختلفة في الجمل، وتحلية آراء العلماء حول ذلك المفهوم. ولتحقيق هذا الغرض سيعتمد البحث المنهج الوصفي في بيان ما يتعلق هذا العلم من ذكر مفهومه وأدواته، فضلاً إلى توضيح أهميته في بناء النص اللغوي، وعلاقاته بين النصوص، ومختتماً بأهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الورقة، منها: أن أبرز ما يميز النص عن اللانص هو ذلك التماسك الشديد بين أجزائه، حتى يبدو النص قطعة واحدة متناسقة الأجزاء، والتناسق بين أجزاء النص يتحقق بأدوات منها ما هو لغوي ومنها غير اللغوي، والتماسك عنصر أصيل في تحقيق التناسق بين مكونات النص، فهو أداة تجمع بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي في تحقيق الوحدة المطلوبة في النص.

الكلمات المفتاحية: النص، التماسك النصّي، السياق، الجمل المعطوفة.

تمهيد

يعد علم اللغة النصّي فرعاً من فروع علم اللغة الحديث، حيث يُعنى بدراسة النصّ بوصفه الوحدة اللغوية الكبرى؛ وذلك بدراسة جوانب عديدة تتصل بالنص، أهمها الترابط أو التماسك، ووسائله وأنواعه، والإحالة أو المرجعية وأنواعها، والسياق النصّي، ودور المشاركين في النصّ (المرسل والمستقبل)، وتشمل دراسته نصّ المنطوق والنص

¹ محاضر بمركز الدراسات العامة، الكلية الجامعية الإسلامية العالمية بسلانجور بماليزيا، fahed@kuis.edu.my

² محاضرة بقسم أصول الدين ومقارنة الأديان برتبة أستاذ مساعد، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، umfaisal@iium.edu.my.

المكتوب على حدّ سواء،³ هذا ويعد قضية التماسك النصّي من القضايا التي اهتم بها علم اللغة النصّي بوصفها الشرط الرئيس لكون كلامٍ معينٍ نصّاً، فبها نفرق بين النصّ واللا نصّ، فالنصّ التماسك- مثل النصّ القرآني- يساعد كثيراً على استجلاء القواعد أو الطرائق والوسائل، فيكون بذلك معياراً لجدوى تلك الوسائل أو عدم جدواها، ومصدراً لاستخلاصها.

وعلم اللغة النصّي يعد من المناهج اللغوية الغربية الحديثة التي عُنيت بتحليل النصّ وتناوله وحدة كلية، وكانت عنايته بالجوانب المشتركة بين اللغات المختلفة، لكن بعض المعاصرين العرب طبّقوه على النصّ القرآني بوصفه وحدة نصّية متماسكة، وما نقصد به هو كونه منهجاً إسلوبياً في تحليل البناء النصّي، يبحث في تماسك بنية النصّ والنظر إليه نظرةً شاملةً كليةً. وبهذا سنقوم بجولة ميسرة حول تماسك النصّ، وسنقتصر على مطالب متعددة منها: مفهوم النصّ وتماسكه، وأهمية التماسك وأدواته، فضلاً عن نظرة القدماء في التماسك النصّي، ومختتماً بأهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة.

المطلب الأول: مفهوم "النص"

ذكرت في المعاجم العربية لمادة "نصّ" عدّة معاني منها: نص الحديث رَفَعَهُ وأسنده إلى المحدث عنه، وناقته استخراج أقصى ما عندها من السّر، والشيء حرّكه، ومنه فلان ينصّ أنفه غضباً، وهو نصّاص المتاع: جعل بعضه فوق بعض، وفلاناً استقصى مسألته عن الشيء، والعروس أقعداها على المنصّة وهي ما تُرفع عليه فانتصت، والشيء أظهره، والشواء ينصّ نصيصاً: أي صوّت على النار، والقدر: غلّت، ونصّص غريمه وناصّه استقصى عليه وناقشه، وانتصّ: انقبض وانتصب وارتفع، ونصّصه حرّكه وقلقله، والبعر أثبت ركبتيه في الأرض وتحرك للنهوض.⁴ إذن يتبين لنا من المعاني اللغوية السابقة أن مادة (نصّ) تعكس استخداماً واسعاً في حقول ومحاور متعددة، كقولنا نصّ الحديث إليه أي رفعه إليه، وانتصّ أي ارتفع وانتصب وانقبض، وأما الحركة نحو قولنا: نصّ القدر أي غلّت، ونصّ العروس وضعها على المنصّة، وأما الإسناد كقولنا: نصّ القول إلى صاحبه أي أسنده إليه. فكلمة "النص" تفيد معنى الرّفيع والإظهار، أي يلزم للمتحدث أو المرسل من إظهار النص ورفع؛ لأجل إدراك المستمع أو المتلقّي لأكبر وحدة لغوية. ويتبنى د. الفقي تعريف (بيوجراند *Beaugrand*) في دراسته للتماسك النصّي، الذي يرى أن النص حدث تواصلية يلزم لكونه نصّاً أن تتوفر له سبعة معايير إذا تحلّف واحد منها تنتزع من النصّ صفة النصّية، وهذه المعايير كالتالي:⁵

³ انظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، (القاهرة: دار فباء، ط1، ج1، 2000)، ص:32.

⁴ انظر: المعجم الوسيط، ولسان العرب، مادة: "نص".

⁵ انظر: الفقي، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص:33-34.

- التناص (*Intertextuality*).
- السبك أو الربط النحوي (*Cohesion*).
- القصد (*Intentionality*) وهو الهدف من إنشاء النص.
- الحبيك أو التماسك الدلالي (*Coherence*)، وترجمتها تَمَام حسان بالالتحام.
- المقامية (*Situationality*) وتتعلق بمناسبة النص للموقف والظروف المحيطة به.
- الإخبارية (*Informativity*) وتتعلق بأفق إنتظار المتلقي وتوقعه للمعلومات الواردة في النص.
- القبول والمقبولية (*Acceptability*) وتتعلق بموقف المتلقي من النص من حيث قبوله أو رفضه.

ومن هنا نلاحظ أن التعريف الذي يتبناه الفقي تعريف شامل لا يلغي أحد أطراف الحدث الكلامي في التحليل، فهو يجمع المرسل والمتلقي والسياق وأدوات الربط اللغوية؛ لذا فإنّ المدخل السليم للتحليل النصي هو التحليل ذو الرؤية الشاملة لكل العناصر النصّية من المرسل، والمتلقي، والسياق، وعناصر الربط اللغوي. ويذهب عبد المالك مرتاض إلى أن مفهوم النص من حيث الشكل، لا يحدد من خلال كمّه أي من خلال الجملة أو مجموعة الجمل داخل النص، فهو يرى أنّ النص: "لا ينبغي أن يحدد بمفهوم الجملة، ولا بمفهوم الفقرة التي هي وحدة كبرى لمجموعة من الجمل، فقد يتصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصاً قائماً بذاته مستقلاً بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الأدبية كالأمثال الشعبية والألغاز والحكم السائرة والأحاديث النبوية التي تجري مجرى الأحكام.⁶ أما مفهوم النص عند كريستيفا: بأنّه "جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصل يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية".⁷ وتنطلق كريستيفا من مفهوم التناص في تحديد مفهوم "النص"، فالنص "ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء معين تتقاطع وتتأني ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى،⁸ وفي موضع آخر تفيد أنّ النص فضاء ثري، يحتزن طاقات ومعارف كبيرة ومتنوعة ومتشابكة، فالنص الأدبي خطاب يخترق وجه العلم والأيدولوجيات مختلفة، ويتنطع لمواجهتها، وفتحها وإعادة صهرها.⁹

إذن فالنص من حيث دلالاته، فهو شبكة معطيات، ألسنية وبنوية وأيدولوجية كلّها تسهم في إخراج النص إلى حيّز الفعل والتأثير، ومن هنا يستند الأستاذ مرتاض على نظرية القراءة في تحديد مفهوم النص الأدبي، "إن النص قائم على التجددية بحكم مقروئيته، وقائم على التعددية بحكم خصوصية عطائته تبعاً لكل حالة يتعرض لها في مجهر

⁶ انظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية النص الأدب، (د.م: دارالمجاهد، عدد1424)، ص: 57.

⁷ انظر: جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، (الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، د.ت.)، ص: 28.

⁸ انظر: المرجع نفسه، ص: 21.

⁹ انظر: نفسه، ص: 13.

القراءة، فالنص من حيث هو ذو قابلية للعطاء المتجدد المتعدد بتعدد تعرضه للقراءة، وهذا ما تطلق عليه جوليا كريستيفا بـ: "إنتاجية النص".¹⁰ ويطلق (هيلمسليف *Hjelmslev*) مصطلح "النص" على أي ملفوظ، منقذ، قديماً أو حديثاً، مكتوباً أو محكياً، طويلاً أو قصيراً، فكلمة "فِئ" مثلاً هي في نظره نصٌ كاملٌ، كما أنّ المادة اللغوية لرواية بكاملها هي أيضاً نص كامل.¹¹ وكلمة النص عند (هاليداي *Halliday* ورقية حسن *Ruqaiyah*) تستخدم في علم اللغة للإشارة إلى أي فقرة منطوقة أو مكتوبة مهما طالت أو امتدت، والنص هو وحدة اللغة المستعملة، وليس محمداً بحجمه، و يرتبط النص بالجملة بطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبارة، والنص لا شك أنه يختلف عن الجملة في النوع.¹²

إذن نلاحظ أن "النص" مجموعة من الجمل البسيطة، وعبارة عن وحدة لغوية ذات علاقاتٍ داخلية، التي تشكل خطاباً، أي وحدة تواصلية تامة، فتكون أصغر وحدة نصية هي الجملة. ومفهوم النص ينصرف إلى مبادئ صياغة بنية الخطاب وقواعدها، أي إلى شكله ونظامه والعلاقات التي تربط أجزاءه الداخلية بعضها ببعض، وإلى الآليات التي تُنظّم العناصر داخل هذا الكيان اللغوي المُسمّى نصّاً، بغض النظر عن الوظائف الاتصالية وعلاقة المقال بالمقام وربط الكلام بالمتكلم والمخاطب.

المطلب الثاني: مفهوم التماسك النصي

ويقصد بالتماسك هو ترابط أجزاء الشيء حسيّاً أو معنوياً،¹³ ومن الدراسات الغربية التي اهتمت في هذا الصدد دراسة (يول وبراون) في "تحليل الخطاب"، وقد لخص محمد خطابي عناصر التحليل النصي عندهما، ومن تلك العناصر على محلل الخطاب أن لا يغفلها وكلها تساهم في بناء تماسك النص اعتماداً على الوظيفة النقلية والتفاعلية للغة؛ لأن هذه الوظيفة في رأيهما أساس الوظائف الأخرى للغة، كما لا ينفي الباحثان باقي الوظائف، والعناصر التي يقدمها الباحثان هي:¹⁴

السياق: الذي يظهر فيه الخطاب، وينقسم إلى قسمين، خارجي وداخلي، ومراعاة السياق الخارجي يعني الإحاطة بالظروف التي أنشئ فيها النص (المرسل والمرسل إليه والزمان والمكان)، فقد يقال نص واحد في سياقين مختلفين، يترتب على ذلك تأويلين مختلفين، ومن هنا تصبح وظيفة السياق وظيفة أساسية يتم من خلالها حصر التأويلات الممكنة للنص، وأهم عناصر السياق عند يول وبراون:

- المرسل: منتج الخطاب.

¹⁰ انظر: مرتاض، في نظرية النص الأدب، ص: 57.

¹¹ انظر: عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، (د.م، اتحاد الكتاب العرب، 2000)، ص: 54.

¹² انظر: الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج 1، ص: 29.

¹³ انظر: المعجم الوسيط، ولسان العرب، مادة: مسك.

¹⁴ انظر: محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط 1، 1991)، ص: 14.

- المتلقي: وهو المستهدف من إنشاء النص.
- الحضور: وهم مستمعون آخرون للنص، حيث يسهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.
- الموضوع: وهو مدار الحدث النصي.
- المقام: وهو المكان، والزمان، والعلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه.
- القناة: أي الوساطة التي تمّ من خلالها التواصل، نحو: كلام، وكتابة، وإشارة.
- النظام: أي أسلوب اللغة أو اللهجة التي تمّ التواصل بواسطتها.
- شكل النص: ما المقصد منه؟ جدال أو عظة أو نكتة أو قصة... إلخ.
- المفتاح: ويتضمن التقييم، هل كان النص جدلاً مثيراً؟ وموضوعياً؟ هل كان موعظة...؟

ويشير الباحثان في صدد هذه الخصائص أن محلل النص هو وحده الذي يحدد عناصر تحليله، فليست كل العناصر بالضرورة متوفرة في جميع النصوص،¹⁵ وأما الدراسات العربية التي تتعلق في ذلك المجال، فنجد أن سيد قطب يُعد من المفسرين -قدمائهم ومحدثهم- الذين تنبهوا إلى التماسك في بناء النص، ونتائج في تفسير القرآن، واستطاع من خلال ذلك أن يخرج تفسيره: "في ظلال القرآن"، فقد وُفق في إدراك اطراد حالات التماسك بين الآيات والمقاطع والسور في القرآن بعد مداورة طويلة لكتاب الله تعالى، ويبدو التماسك في بنية النص كما قدّمه سيد قطب في تفسيره الظلال، كالآتي:¹⁶

- التماسك بين مقاطع الدرس الواحد بوصفه جزئيات تكمل موضوع ذلك الدرس.
- التماسك بين آيات المقطع الواحد بوصفه أفراداً تلتقي وتكمل بعضها لتبرزه مقطعاً متماسكاً.
- التماسك بين دروس السورة الواحدة التي تلتقي إلى تحقيق هدف السورة وغرضها، وتتناغم في إبراز شخصية تلك السورة.
- التماسك بين كلمات الآية الواحدة وجملها؛ لتكوّن لبنة متكاملة من لبنات النص القرآني المعجز.

وقد طبّق سيد قطب رؤيته في كل سور القرآن التي تبدو بصورة جلية اتخذها منهجاً سار عليه في تفسيره، وقد أثبت نظريته في تماسك بنية النص في السور كلها، فمثلاً في بداية سورة الأعراف يقول: "إنّ كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميّزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثمّ تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة،

¹⁵ انظر: خطابي، لسانيات النص، ص: 52-53 .

¹⁶ انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، (الجزائر، دار الشهاب، د.ط، 1998). ص: 156.

وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع وتحقيق هذه الغاية،¹⁷ وفي سورة البقرة نزلت آياتها منجّمة في فترة زمنية طويلة، وبقيت مفتوحة عشر سنوات تقريباً،¹⁸ حيث إنّ منها ما نزلت في أوّل العهد المدني، وإنّ آخر آيات نزول القرآن هي من بين آياتها، وعلى الرغم من أنّها تحوي موضوعات عدّة، إلاّ أنّ المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يتربط الخطّان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً، فمن ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية، ومن الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أوّل نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض.¹⁹

ويعرض محمّد خطابي مظاهر النص؛ وطبيعة انسجامه، كما جاءت في اللسانيات الوصفية، ولسانيات الخطاب، ونظرية تحليله، وكما تجلّت في أعمال (فان ديك Van Dijk) التي ينسجم الخطاب فيها كالاتي: أن الخطاب يتفرع إلى وظيفتين، دلالية وتداولية، وتحوي الوظيفة الدلالية العناصر الآتية: الترابط، والانسجام، والبنىات الكلية. أمّا الوظيفة التداولية فتضم: السياقات، والأفعال الكلامية.²⁰ وقد استفاد خطابي من الأعمال التي طبقت في اللغة الإنجليزية في مجال تحليل الخطاب من اللسانيات الغربية، وقام بتطبيقها كذلك في تراث الدراسات العربية، كعلوم القرآن، وعلم التفسير، والبلاغة، والنقد الأدبي، وقد أثبت من خلال بعضها أن ما قدمته من آليات نصية يرقى إلى ما قدمته اللسانيات النصية المعاصرة، ومن خلال تلك المزوجة حاول تأسيس لسانيات نصية عربية تحاور النص العربي بالاستفادة من كل تلك المعطيات.

المطلب الثالث: أهمية التماسك في بناء النصّ

هناك أهميات متعددة يذكرها صبحي الفقي في التماسك في بناء النص اللغوي، ومنها:

- الربط بين الجمل المتباعدة زمنياً.
- التعرف على ما هو نص وما هو غير ذلك.
- التركيز على كيفية تركيب النص بوصفه صرحاً دلالياً.
- إعداد روابط التماسك التي يعتبر المصدر الوحيد للنصّية.

أما التماسك النصي بين الآيات، فيرى السيوطي أهمية ذلك أنه يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلاحم الأجزاء.²¹ ويبدو من هذا النص أن

¹⁷ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ط 11، ج 3، 1985). ص: 1243.

¹⁸ انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، (الجزائر، دار الشهاب، 1998). ص: 156.

¹⁹ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ط 11، ج 1، 1985). ص: 28.

²⁰ انظر: خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 384.

²¹ انظر: جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: مكتبة المشهد الحسيني، د.ت.)، ص: 109.

التماسك أهم صفة للنص؛ وذلك أن عبارات مثل: "بناء محكم"، و"بناء متلاحم"، تشير كلها إلى خاصية النص الأساسية والتماسك بين مكوناته، ويمكن إجمال بعض علاقات التماسك عند السيوطي كالتالي:

أ- علاقة التماسك بين الجمل المعطوفة:

علاقة تضاد: من ذلك قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ (سبأ: 02)، إن جمل هذه الآية والمعطوفة بحرف العطف (الواو)، تتماسك عن طريق علاقات تضاد بين الأرض والسماء، والنزول والإعراج، ومن هذه العلاقة أيضا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 245).

ب- علاقات التماسك بين الجمل غير المعطوفة:

علاقة مضادة: وتقوم هذه العلاقة على ذكر طائفة من الصفات، وعلى إثرها تذكر صفات تقف على النقيض من الصفات الأولى، من ذلك قوله تعالى في أوائل سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ (البقرة: 6)، فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن، وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل ذلك، عقب بحديث الكافرين فبينهما جامع وهمي ويسمى بالتضاد من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثبوت على الأول،²² وهذا يشير إلى أن المتلقي لا يغيب أبداً عن تحليلات السيوطي؛ فالتشويق يستهدف أول ما يستهدف إحداث تفاعل في القمة مع المتلقي.

علاقة استطراد: من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى...﴾ (الأعراف: 26)، إلى قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾ (النساء: 172).

الانتقال من حديث إلى حديث تنشيطاً للمتلقي: فغرض هذه العلاقة أساساً المتلقي، ومن هذه العلاقة قوله تعالى في سورة (ص) بعد ذكر الأنبياء: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ﴾ (ص: 49)، فإن هذا القرآن نوع من الذكر، لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل، أراد سبحانه بعد ذلك أن يذكر نوعاً آخر، هو ذكر الجنة وأهلها، ثم لما فرغ قال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرِّ مَآبٍ﴾ (ص: 55)، فذكرها وأهلها.²³

²² انظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ص: 109.

²³ انظر: المرجع نفسه، ص: 110.

علاقة سياقية: منها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ (البقرة: 189)، فأبي تماسك بين أحكام الأهلّة وإتيان البيوت، وإدراك التماسك في الآية يتطلب معرفة السياق الذي نزلت فيه الآية، ذلك أنه تعالى كما ذكر أنّها - الأهلّة - مواقيت للحج، وكان هذا - إتيان البيوت - من أفعالهم في الحج.. ذكر معه من باب الزيادة في الجواب على ما في السؤال،²⁴ ونستطيع أن نجمل علاقات التماسك بين السور في العلاقات الآتية:

- علاقة تماسك بين فواتح السور وخواتمها: نحو افتتاح سورة (ص) بالذكر، وختمها به في قوله تعالى: ﴿...إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (ص: 87)، وكذلك بدأ سورة (القلم) بقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (ن: 2)، وختمها بقوله تعالى: ﴿...إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (ن: 51).
- علاقة تماسك بين فاتحة السورة وخاتمة التي قبلها: مثل التماسك الموجود بين افتتاح سورة فاطر وختم سورة سبأ، وافتتاح سورة الحديد وختم سورة الواقعة، وافتتاح سورة البقرة وختم الفاتحة، وافتتاح المائدة وختم سورة النساء.
- علاقة تماسك نحوي دلالي: نحو التماسك الموجود بين سورة قريش وسورة الفيل.
- علاقة تقابل: مثل التقابل الذي يربط بين سورة المسد و سورة الماعون.
- علاقة تماسك بحسب الحروف: نحو التماسك الموجود في سور الحواميم.
- علاقة تماسك إيقاعي: نحو التوازن في اللفظ في آخر المسد وسورة الإخلاص، ومن هذه العلاقة أيضاً، أن كل سورة بدأت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحَقُّ لكل سورة منها أن لا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وضع (ق) موضع (ن) لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله تعالى. وسورة (ق) بدأت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ (القاف) من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد الرقيب، والسائق في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين والقلب والتنقيب في البلاد وتشقق الأرض وحقوق الوعيد وغير ذلك.
- علاقة مشابهة مضمونية: نحو التشابه في سورتي (الضحى والانشراح).
- علاقة تماسك صوتي دلالي: فقد اشتملت سورة (ص) على خصومات متعددة، فأولها خصومة النبي (صلى الله عليه وسلم) مع الكفار، وقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا...﴾ (ص: 5)، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملائكة الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن نبيه وإغوائهم. وسورة الأعراف زيد فيها على (الم) حرف (الصاد)، لما فيها من القصص، قصة آدم، فمن بعده الأنبياء، ولما فيها من ذكر: ﴿...فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَزَجٌ مِنْهُ...﴾ (الأعراف: 2)، وزيد في سورة الرعد حرف (الراء)؛ لأجل قوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ...﴾ (الرعد: 2)، ولأجل ذكر الرعد، والبرق، وغيرها.

²⁴ انظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ص: 113.

المطلب الرابع: أدوات التماسك في بناء النص اللغوي

رُكِّز اللغويون على أدوات الربط بين الجمل محددين أنواع العلاقات الممكنة في الخطاب التماسك، باعتبارها أساساً لنحو التماسك، فقد حاول هاليداي ورقية تحديد السّمات التي تميز النصّ عن اللا نص، وباعتبار النصّ وحدة دلالية، فترتبط أجزاؤه بواسطة أدوات ربط صريحة. ويقدم هاليداي ورقية حسن خمسة أنواع لأدوات التماسك في بناء النص اللغوي، وبها تتماسك الجمل، وتساهم في خلق النصية اللغوية، وهي كالتالي:²⁵

- **الربط المعجمي:** ويشمل أشكال التكرار والتضام.
- **الحذف:** ويشمل الحذف الاسمي، والفعلية، والعباري.
- **العطف أو الوصل:** ويضم الوصل الإضافي، والسببي، والزمني.
- **الإبدال أو الاستبدال:** ويتضمن الاستبدال الاسمي، والفعلية، والعباري.
- **الإحالة أو المرجعية:** وتتضمن ضمائر الإحالة الشخصية، والإشارية، والمقارنة.

وهنا يؤكد هاليداي *Halliday* ورقية حسن *Ruqaiyah* أن علاقات الترابط علاقات دلالية، فضلاً عن وجود مجموعة من الوسائل الشكلية التي تؤدي إلى ترابط النص أثناء تنظيم الكاتب أو المتكلم للنص، مثل: التوازي التركيبي، والوزن أو البحر، والإيقاع أو القافية، وبهذا فالربط اللفظي ليس فقط جزءاً من النظام اللغوي، وإنما هو عملية داخل النص، حيث إن أحد العناصر يقدم مصدراً لتفسير العنصر الآخر. ويُعد السّيق من أدوات التماسك الضمنية التي تحقق التماسك في بنية النص، فأى وحدة لغوية من النص الواقع تحت إطار التحليل تشمل بيئتين:²⁶

- البيئة اللغوية المصاحبة للنص.
- البيئة الخارجية عن النص وهي تتصل بالنص.

والمرجعية قد تكون خارجية، وقد تكون داخلية، والداخلية قد تكون لما سبق، أو لما تأخر، ويمكن تقسيم المرجعية إلى:

- مرجعية إشارية: (هذا، هؤلاء، أولئك،..).
- مرجعية مقارنة: (أفضل، أكثر، أحسن...).
- مرجعية شخصية: كالضمائر (أنا، أنت، هو، هم،...).

²⁵ انظر: عزة شبل، علم لغة النص، ص: 101 .

²⁶ انظر: الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية، ج1، ص: 117.

ويرى بيوجراند *Beaugrand* ودريسلر *Dressler* أن الكلمات ترتبط بعضها مع البعض في أشكال داخل النصوص، وهي: ²⁷

- التكرار: أي الإعادة المباشرة للكلمات.
- التوازي: أي تكرار نفس البنية التركيبية، ولكنها تملأ بعناصر جديدة.
- إعادة الصياغة: ويعني تكرار المحتوى، ولكن بنقله بواسطة تعبيرات مختلفة.
- الحذف: أي حذف بعض العناصر في البنية السطحية، مثل الفعل أو الفاعل.
- التكرار الجزئي: أي استعمال المكونات الأساسية للكلمة مع نقلها إلى فئة كلمة أخرى.
- الربط: وله عدة أنماط: ربط الوصل، وربط الفصل، وربط التبعية، وربط التعارض، وربط الزمن، وربط الجهة.

المطلب الخامس: نظرة القدماء في التماسك في بناء النص اللغوي

رَكَّز علماء النص على أهمية الجملة الأولى في التحليل النصي، وعلاقة الجمل التالية كلها بهذه الجملة، وبالقياس يذكر الرازي أهمية سورة الفاتحة بالنسبة لما يليها، فيقول: هذه السورة مسماة بأَم القرآن فوجب كونها كالأصل والمعدن، وأن يكون غيرها كالجداول المتشعبة منه، فقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنبيه على أن كل موجود سواه فإنه دليل على إلهيته،²⁸ وذهب السيوطي إلى أن الأصل بالنسبة لسورة الفاتحة وعلاقة القرآن الكريم كله بها، حيث ذكر أن من أسباب بداية السور المكية بالأنعام، وذلك بعد الفاتحة بالطبع، أن كل ربع من القرآن تبدأ بالحمد، "الفاتحة" تبدأ بالحمد، والأنعام للربع الثاني بالحمد، والكهف للربع الثالث، وسبأ وفاطر للربع الرابع.²⁹

فنستنتج من ذلك أن التماسك في بنية النص بين سور القرآن وخاصة المكية منها يمثل وحدة متكاملة كلية للنص القرآني، هذا وقد صرح السيوطي أن دراسة التماسك بين الآيات والسور بإمكانه أن يؤكد على جانب مهم من حقيقة إعجاز القرآن، ويتمثل ذلك الجانب في التماسك الشديد بين آيات وسور في نص ظل مفتوحاً على مدار ثلاث وعشرين سنة، فالسيوطي يرى أن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط،³⁰ ومن هنا نلاحظ أن دراسة السيوطي للتماسك كان من بين مقاصدها الأساسية إشارة إلى حقيقة إعجازية عن طريق التماسك بين الآيات والسور.

²⁷ انظر: عزة شبل، علم لغة النص، ص: 102 .

²⁸ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (القاهرة: دار الغد العربي، ط1، ج1، 1991)، ص 227.

²⁹ انظر: جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبد القادر عطا، (القاهرة: دار الاعتصام، د.ط.، 1976)، ص: 100.

³⁰ انظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ص: 108.

أما الجرجاني فإنه يرى أن التماسك في القرآن نظرة شاملة وكلية باعتباره نصّاً واحداً في التحليل النصي، وذكر أن هناك تماسكاً شكلياً ودلالياً، وقد أجاب على سؤال حينما سُئل ما الذي أعجز العرب من النص القرآني؟ فقال: "تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها... بل وجدوا اتساقاً بمر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتتاماً، وإتقاناً وإحكاماً...³¹ أما التماسك عند اللغويين فيختلف إلى حد كبير، إذ إنهم يركزون تركيزاً شديداً على التماسك على مستوى الجملة فقط، وهذا في الغالب، فقد ركزوا في قضية الإسناد على الابتداء والفاعلية وغيرها مما يتعلق بالجملة، وعلى ضرورة وجود الرابط في جملة الصلة والخبر الجملة. وهذا نوع من التأكيد على ضرورة التماسك، لكن على مستوى الجملة فقط. وتحدث سيبويه من قبل عن أهمية وجود الضمير الذي يحيل على السابق، وإلا يحيل الكلام غير حسن.³² إذن من اللمحات السابقة الموجزة تبين لنا إدراك البلاغيين والمفسرين واللغويين إدراكاً واعياً لكثيرٍ من الجوانب المرتبطة بالتماسك في بناء النص، شكلياً ودلالياً، حيث برع الرازي في ربط الآيات السابقة بالآيات اللاحقة، والجرجاني يؤكد شمولية التماسك في القرآن باعتباره نصّاً واحداً في التحليل النصي، والسيوطي يرى أن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

هذا فمن خلال دراستنا مما سبق يتبين لنا الآتي:

- إن "النص" مجموعة من الجمل البسيطة، وعبرة عن وحدة لغوية ذات علاقاتٍ داخلية، التي تشكّل خطاباً، أي وحدةً تواصليةً تامةً، فتكون أصغر وحدة نصية هي الجملة.
- إن أبرز ما يميز النص عن اللانص هو ذلك التماسك الشديد بين أجزائه بنية النص اللغوي، حتى يبدو النص قطعة واحدة متناسقة الأجزاء، والتناسق بين أجزاء النص يتحقق بأدوات منها ما هو لغوي ومنها غير اللغوي.
- التماسك عبارة عن عنصر أصيل في تحقيق التناسق بين مكونات النص، فهو أداة تجمع بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي في تحقيق الوحدة المطلوبة في النص.
- هناك علاقات متنوعة لتحقيق التماسك في بناء النص اللغوي، نحو علاقة التضاد بين العبارات المعطوفة، والاستطراد في العبارات غير المعطوفة، وعلاقة سياقة في الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للمتلقي، فضلاً عن علاقات أخرى مثل: علاقة التقابل في النص، و تماسك الإيقاعي، وكذلك التماسك الصوتي الدلالي وغيرها من العلاقات التي ذكرت.
- يُعد السّياق من أدوات التماسك الضمنية التي تحقق التماسك في بنية النص، فأى وحدة لغوية من النص الواقع تحت إطار التحليل لا بد أن تشمل بيئتين وهما: البيئة اللغوية المصاحبة للنص، والبيئة الخارجية عن النص وهي تتصل بالنص.

³¹ انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلالات الإعجاز، تحقيق: محمد رشيد رضا، (القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ط6، 1977)، ص: 8.

³² انظر: الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص: 110.

- إن التماسك في بنية النص اللغوي عند القدماء يمثل وحدة متكاملة كلية للنص القرآني، ويتمثل ذلك في حقيقة الإعجاز القرآني بين آيات وسور، وبين اللطائف القرآنية المودعة في الترتيبات والروابط، فضلاً عن التماسك الشكلي والدلالي باعتباره نصاً واحداً في بناء النص اللغوي.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، (المدينة المنورة: مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف).
ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د.ت.).
إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004).
- جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: مكتبة المشهد الحسيني، د.ت.).
_____، تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبد القادر عطا، (القاهرة، دار الاعتصام، 1976).
- جوليا كريستفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، (الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، د.ت.).
سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ط 11، ج 1 و ج 3، 1985).
صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، (القاهرة: دار قباء، ط 1، ج 1 و ج 2، 2000).
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، (الجزائر: دار الشهاب، 1998).
عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رشيد رضا، (القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ط 6، 1977).
- عبد المالك مرتاض، في نظرية النص الأدب، (المجاهد، عدد 1424).
عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، (د.م.، اتحاد الكتاب العرب، 2000).
عزة شبل محمد، علم لغة النص: النظرية والتطبيق، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط 1، 2007).
فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، (القاهرة: دار الغد العربي، ط 1، ج 1، 1991).
محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط 1، 1991).